المتخيل في رحلة أحمد بن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة

The imaginary in Ahmed bin Fadhlan's journey to Russian, Tirkish and Slavic country

خديجة ميهوبي

Mihoubi khadidja

جامعة عمار ثليجي الأغواط (الجزائر)، kh.mi83@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2022/01/18 تاريخ القبول: 2022/01/20 تاريخ النشر: 2022/03/31

ملخص: يعرف الإنسان منذ القدم بحبه للاستكشاف والاطلاع ومعرفة ما يحيط به، بكل السبل الممكنة والمتاحة منها الرحلة، التي تعد أهم وسائل المعرفة، تنوعت واختلفت وتعددت أهدافها ومساراتها ومع ظهور الإسلام كان الهدف الأساسي لها التعريف بتعاليم الإسلام ، مثل رحلة أحمد بن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة، هذه الرحلة التي مزج فيها صاحبها بين الواقع والخيال، بين المعقول واللامعقول بطريقة مثيرة تشد إنتباه المتلقي، هذا ما سنحاول إبرازه في هذه الورقة البحثية بتسليط الضوء على الجانب المتخيل فيها.

كلمات مفتاحية: المتخيل، الرحلة، أحمد بن فضلان، الترك، الروس، الصقالبة.

Abstract : Since ancient time, man has been known for his love of exploration and knowledge of his surroundings, in all possible and available ways, including the journey, which is the most important means of knowledge, and its objectives and paths varied and diversified. With the emergence of Islam, its main objective was to introduce the precepts of Islam, such as Ahmed bin Fadhlan's journey to Russian, Tirkish and Slavic country. This journey, in which the author blends reality and fiction as well as reasonable and irrational, in an interesting and exciting way, draws the attention of the recipient. That's what we are going to underscore in this paper by highlighting the imaginary aspect of it.

Keywords: Imaginary, Journey, Ahmed Bin Fadlan, Russian, Tirkish and Slavic country.

مقدمة:

عرفت العرب منذ القدم الرحلة، فكان الشاعر يصف في معلقته رحلته وراحلته، ومالقاه من عناء من خلالها، وما تعلمه، أسبابها إختلفت فمنها من كان بغرض البحث عن أماكن للعيش الأفضل، ومنها من كان بسبب السياسة والحروب، ومنها من كان بهدف طلب العلم والمعرفة **لقوله صلى الله عليه وسلم** «أطلبوا العلم ولو في الصين»، ومنها من كان لهدف ديني كأداء مناسك الحج وغيرها أو تلقين الدين، ومن الرحالة من يستهويه السفر فكانت رحلاته لترفيه وسياحة...إلخ.

يقوم الرحالة بتدوين أحداث رحلتهم ولعل من بين أهم هؤلاء الرحالة **المسعودي**[1] الذي ترك لنا **أخبار الزمان وأباده الحدثان، وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران** ...إلخ، **ياقوت الحموي**[2] الذي دون رحلاته في العديد من المؤلفات منها **معجم البلدان** الذي يعد أهم المعاجم الجغرافيا، و **بن بطوطة**[3] أشهر مؤلف رحلي له **تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، أما **بن فضلان**[4] فرحلته كانت لبلاد الترك والخزر والروس والصقالبة والمعروفة ببلاد البلغار التي هي محور دراستنا في هذه الورقة البحثية.

من ما سبق رأينا أن لكل رحلة سبب وهدف مرجوا منها فما هو سبب رحلة **ابن فضلان** لبلاد الترك والخزر والروس والصقالبة، لهذه الأراضي المعروفة ببعدها عن بلاده– بغداد– وما هو هدفها؟ ، كيف إستطاع تجسيدها، وكيف تجلى المتخيل في طياتها؟

1/ مفهوم الرحلة:

1-1/ الرحلة لغة: تعني الانتقال، والفعل «رحل يرحل مصدره رحيل أي ذهب وانتقل والرحلة هي الجهة التي يقصدها المسافر، ويقال رحل الرجل إذا سار، وأرحلته أنا. ورجل رحول وقوم رحل: أي يرحلون كثيرا...»[5]، وورد في **القاموس المحيط** «ارتحل البعيُر: سار ومضى، وقومُ عن المكان: انتقلوا، كتَرحَّلوا و الاسم، الرِّحلة بالضم والكسر، أو بالكسر، الارتحال وبالضم، الوجه الذي تقصِده، والسفرة الواحدة»[6]، فالرحلة في معناها اللغوي تحمل معنى السير والانتقال من مكان الانطلاق إلى مكان آخر مقصود.

2-1/ الرحلة إصطلاحا: الرحلة هي «النوع الأدبي الذي يفسح المجال أمام ترسيخ تقليد الموازنة بين فضاءين وقيمتين وصورتين، حتى في الحالات التي تقتصر فيها الرحلة على مجرد الوصف للعالم الجديد. الأن هذا الوصف يخضع، عن وعي أو لا وعي، لمنظور وثقافة الواصف الذي يعمل على تحويل لغوي ومفهومي للمنظورات»[7]، وبتالي فأدب الرحلة يسجل من خلاله الرحالة مشاهداته وانطباعاته بدرجة من الدقة والصدق وجمال الأسلوب.

2/شروط الرحلة:

هناك صفتان عامتان لا بد توفرهما في أدب الرحلات **أولهما** أن يكون من يكتب عن الرحلات رحالا بطبيعته محبا للرحلات و**ثانيها** أن يكتب بالأسلوب الذي يجعل وصفه للرحلة يعكس روح الرحلة والرغبة الشديدة التي تتملكه للقيام بها[8]، مستعينا في ذلك بالخيال – حتى وإن كانت الرحلة واقعية– فالخيال لبنة من لبناتها، هذا الأخير الذي لا تخلوا فطرة الإنسان منه، وهو صفة نفسية عامة تساعد على اختراق الواقع أو تفسيره وتبريره، كما أن الخيال يترك بصمته وأثره الكبير في ما يخلق من الإبداعات الأدبية، فإذا انعدم الخيال في النص الأدبي أصبح نصا رثا فجا.

2-1/ مفهوم الخيال:

الخيال في **اللغة** من خَالَ الشيء يَخالُ خَيْلاً وخِيلة وخَيْلة وخالاً وخِيَلاً وخَيَلانًا ومَخالة ومَخِيلة وخَيْلولة: ظنّه و في المثل « من يسمع يخل أي يظن (...) وخَيَّل فيه الخير وتخّيله: ظنّه وتفرّسه. وخيّل عليه: شبّه. وأخال الشيء إشتبهه (...) وفلان يمضي على المخَيَّل أي على ما خَيَّلت أي ما شبهت يعني على غَرَر من غير يقين»[9]

عرف الخيال منذ القديم من عهد **أفلاطون** الذي يرى أن للخيال القدرة على استحضار الرؤية المنصرفة، تلك التي تسمو على ما يتناوله مجرد العقل[10]، أما **أرسطو** فيرى أن الخيال حركية يسببها للإحساس بحيث لا يتأتى الخيال أن يوجد بدونه، وهما أي الإحساس والخيال مختلفان، ومتى لم يوجد الخيال والإحساس لم يتأتى وجود التصور conception وليس الخيال والتصور بمتطابقين[11]، ويستدل برؤية الشمس تبقى صورة الشمس نتخيلها عند إغماض وتتلاشى تدريجا.

الخيال والتخيل عند **النقاد العرب** حظي بالاهتمام فهذا **الجرجاني** يتطرق للتخييل في تقسمه للمعاني إلى عقلييّ، وتخييليّ والذي «لا يمكن أن يقال إنه صدق، وإن ما أثبته ثابت ونفاه منفي»[12]. والتخييل عند **الجرجاني** هو ضرب من الخداع والتزوير والإيهام فدوره سلبي، في حين نجد **بن عربي** أسند للخيال وظيفة كشفية بقوله « مدرِك يعلم وله قوة التخيّل، ومدرك يعلم وماله قوة التخيَّل. والمدرَك – بفتح الراء – على ضربين: مدرك له صورة، يعلمه بصورته من ليس له قوة التخيّل ولا يتصوره، ويعلمه ويتصوره من له قوة التخيّل»[13]، ويبين **بن عربي** العلاقة بين الخيال والعقل «المعلومات منحصرة، من حيث ما تدرك به، في حس ظاهر وباطن، وهو الإدراك الباطن – و بديهة، وما يتركب من ذلك: عقلا إذا كان معنى، وخيالا إن كان صورة. فالخيال لا يركب إلاّ في الصورة خاصة. فالعقل يعقل ما يركب الخيال، وليس في قوة الخيال أن يصور بعض ما يركبه العقل»[14].

ويعد أعظم تحول لمفهوم الخيال كان على يد الفيلسوف للألماني **كانط** إذ يرى «أن الخيال أجل قوى الإنسان وأنه لا غنى لأي قوة أخرى من قوى الإنسان عن الخيال وقلما وعى الناس قدر الخيال وخطره»[15] فالخيال أعظم قدرة يتمتع بها الإنسان.

أما في النقد الحديث ازدهر الخيال واهتمت الدراسات به على يد الرومانسيون ف **وليام وردزوث** Wordsworth«الذي اعتبر أن للخيال القدرة على الإبداع وهو أسمى من الوهم»، في حين نجد **كوليردج** Coleridge يرى أن الخيال يستطيع أن يعثر على كل صورة الأفكار في الطبيعة فهو يحاكيها في عمله، ولكنه ينظم هذه الصور في وحدة متكاملة تفوق ما هو متفرق في الطبيعة، قسم الخيال إلى نوعين الخيال الأولي والخيال الثانوي، الخيال الأولي هو القوة الحيوية والعامل الأول في كل إدراك إنساني، وهو عملي في وظيفته فكل إدراك علمي لابد فيه من هذا النوع من الخيال، أما الخيال الثانوي فهو صدى للخيال السابق، ويصطحب دائما بالوعي والإدراك، وهو يتفق مع الخيال الأول في نوع عمله، لأنه يحلل الأشياء، أو يؤلف بينها أو يوحدها، أو يتسامى بها، ليخرج من كل ذلك بخلق جديد[16]، فالخيال الأولي هو فطري في الإنسان معرفي، أما الثاني فهو الخيال الفني الخلاق يختلف في درجة وجوده من مبدع إلى آخر.

ليس كل ما يبدعه الخيال مجرد مشهد خارق للطبيعة، ولا هو في نفس الوقت مترجم ولا ناقل للعالم الخارجي، وإنما هو مبدع لصورة المادية جديدة، التي تمثل انفتاحا عليها في باطنها هذا ما صرح به باشلار ويؤكد عليه **أرمان بتيجان** Armand petitjean بقوله إن الخيال يجعلنا نتعالى ويضعنا في مواجهة العالم من خلال باب ضيق[17]، فالخيال يجعلنا نرى العالم في انفتاحه بشكل جديد بدون أن ننفصل عنه وهو «الملمح الوحيد الذي يميز الموجودات الإنسانية على الإطلاق عن سائر الموجودات الأخرى، فالحيوانات — مثلا – برغم تمتعها بالذكاء لا تنشد الكمال. في حين أنه بدون الخيال يصبح الكمال مستحيل»[18]، وعلى حد تعبير الفيلسوف **جان جاك روسوو** J.J Rousseau يبقى الخيال مغامرة الإدراك، وباعتباره أقصى فعل حر لدى الإنسان الذي يبدأ بالواقع، وإنما على النحو الذي لا يتقيد فيه بأي واقع، لأن الخيال يبدع الواقع عن طريق تغيير وتحويل صورة المادية المدركة، بل وعن طريق إضفاء قيمة عليه حينما يجعله مثقلا بالمعاني والدلالات الإنسانية[19]

فمفهوم الخيال يصعب تحديده أو حصره كونه طاقة عقلية داخلية غامضة، اختلف فيه الباحثون من واحد لأخر بحسب وجهت نظر كل واحد فيهم والرؤيا التي يتبناه، وما لا يمكن إنكاره أبدا أن الخيال أقوى الوسائل لتعبير عن الفكر والشعور بطريقة مؤثرة، بالرغم من عدم إقرار عقل الإنسان برؤيتها الذاتية، كما يقول **أينشتاين** –الخيال أهم من المعرفة – كون الخيال يوظف المعرفة للوصول إلى الحقيقة.

الخيال حجر الأساس في جميع الأعمال الفنية والأدبية وسمة ملازمة لهذا الأخير، سواء كان هذا الخيال خيالا بيانيا عن طريق الاستعارات البليغة والتشبيهات الرائعة التي برع فيها العرب وجادوا فيها وتفوقوا ووظفوها في شعرهم ونثرهم والمطلع عليه يلمس ذلك بشكل جلي، أو كان هذا الخيال خيالا خلاقا مبدعا مبتكرا في النصوص الأدبية والتي على رأسهم الرحلة « ويشهد تاريخ الرحلة في الأدب العربي على مرتحل محددة من نشوء ونمو وتطور هذه النصوص التي جاءت في ما إلتقى من حقول معرفية يبدأ بالتاريخ ولا تنتهي عند الانثنولوجيا، فنص الرحلة ومحكيها وجد قبل الرحلات، بمعنى أن المتخيل الذي شكل النص الرحلي " عنصرا" أو "نصا" كان هو المادة التي انفتحت على المعطيات الواقعية و

الاحتمالية»[20]، كونها إن خلت منه أصبحت عبارة عن تسجيل وسرد جامد، فالخيال يعطي لكل عمل غزارة وكثافة وغنى فهو شرارة وشغلته الأدب يفرض وجوده داخله.

3/ التعريف برحلة أحمد بن فضلان:

قام **أحمد بن فضلان** برحلته إلى بلاد البلغار بين عامي (309-310هـ) (921 . 922 م) بطلب من أمير المؤمنين-المقتدر بالله- والذي طلب منه ملك الصقالبة «" ألمش ابن يلطوار" أن يرسل إليه بعثة من قبله تفقهه في الدين وتعرفه شرائع الإسلام، وتبني له مسجدا، وتنصب له منبرا يقيم عليه الدعوة للخليفة في جميع مملكته وسأله إلى ذلك أن يبني له حصنا ستحصن فيه من الملوك المخالفين»[21] ، مسارها العام بدأ من بلاد العجم والأتراك ثم الصقالبة ثم الروسية، ثم الخزر وطبعا كانت الإنطلاقة من بغداد، وبتالي فالرحلة هي عبارة عن مهمة رسمية سجلها بن فضلان في رسالة قدمها إلى أمير المؤمنين المقتدر بالله.

يتكون الوفد القائم بهذه الرحلة من **سوسن الروسي** وهو من بلاد الروس، أما الثاني **باريس الصقلابي**، أما الثالث فهو **تكين التركي**، أما الرابع فهو **أحمد بن فضلان** الذي يعد رئيس الوفد فهو الآمر والناهي، على الرغم من جهله باللغات الأجنبية بيد أنه على دراية بالشريعة[22]، فكيف كانت هذه الرحلة يا ترى؟

4/ المتخيل في رحلة أحمد بن فضلان:

يسرد لنا **بن فضلان** رحلته المتعددة الأشكال والمختلفة الأوجه عن ما عهده في بلاده، في عالم غير عالمه يختلف عنه في جميع النواحي الطبيعية والبشرية والاجتماعية، فالجرجانية يصفها بقوله «وجمد نهر جيجون من أوله إلى آخره. وكان سمك الجمد سبعة عشر شبرا، وكانت الخيل والبغال والحمير والعجل تجتاز عليه كما تجتاز على الطرق. وهو ثابت لا يتخلخل (...) فرأينا بلدا ما ظننا إلا أن بابا من الزمهرير قد فتح علينا منه، ولا يسقط فيه الثلج إلا معه ريح عاصف »[23] فلشدة البرد وكثرة الثلوج الأرض تتشقق والشجر ينقسم من هذه البرودة « ولقد رأيت الأرض تنشق فيها أودية عظام لشدة البرد، وأن الشجرة العظيمة العادية لتنفلق بنصفين لذلك»[24]، فإذا كانت هذه حالة الأرض والطبيعة فكيف تكون حالة الإنسان في هذه البلاد المتجمدة.

يدخل بنا **أحمد بن فضلان** في عوالم رحلته قائلا «رأيت في بلدة العجائب مالا أحصيها كثرة، من ذلك أن أول ليلة بتناها في بلده، رأيت قبل مغيب الشمس بساعة أفق السماء وقد احمر احمرارا شديد وسمعت في الجو أصواتا شديدة وهمهمة عالية، فرفعت رأسي فإذا غيم أحمر مثل النار قريب مني، فإذا تلك الهمهمة والأصوات منه، وإذا فيه أمثال الناس والدواب، وإذا في أيدي الأشباح التي تشبه الناس، رماح وسيوف أتبينها أرى فيها أيضا رجالا و دواب وسلاحا، فأقبلت هذه القطعة تحمل على هذه كما تحمل الكتيبة على الكتيبة. ففزعنا من ذلك وأقبلنا على التضرع والدعاء، وهم يضحكون منا ويتعجبون من فعلنا. قال وكنا ننظر إلى القطعة تحمل على القطعة فتختلطان جميعا، ساعة ثم تفترقان فما زال الأمر كذلك ساعة من الليل، ثم غابتا فسألنا الملك عن ذلك، فزعم أن أجداده كانوا يقولون هؤلاء من مؤمني الجن وكفارهم يقتتلون كل عشية»[25]. فهذه الأجواء تثير التعجب والحيرة في ذهن المتلقي هل هذا واقع أم خيال، كما أنها تنشط مخيلته لرسم هذه الصورة فالرحلة تجمع «لعجائب وغرائب الآخر إنسانا وعمرانا وتاريخا، لاعتبارات يلتقطها الراوي –الرحالة أو ينسجها– فهي شيء غير مألوف يوضع دائما في المقارنة مع المألوف، والرحالة هي خروج من دائرة ما هو مألوف إلى انفتاح على اللامألوف وتجلياته»[26]، فالخروج عن المألوف والسير في عوالم مجهولة المعالم تسودها روح العجيب فكان «الخيال فيها طافحا، والعقل مغيبا تماما والنفس مصدقة لكل ما يروى لها من الحكايات و الخرافات التي كان البعيد المرتع لها»[27].

البلد عند «طلوع الشمس يحمر كل شيء فيه من الأرض والجبال وكل شيء ينظر الإنسان إليه حين، تطلع الشمس كأنها غمامة كبرى، فلا تزال الحمرة كذلك حتى تتكبد السماء. وعرفني أهل البلد أنه إذا كان الشتاء عاد الليل في طول النهار، وعاد النهار في قصر الليل، حتى أن الرجل منا ليخرج إلى موضع يقال له "إتل"– بيننا وبينه أقل من مسيرة فرسخ — وقت طلوع الفجر فلا يبلغه إلى العتمة، إلى وقت طلوع الكواكب كلها حتى نطبق السماء. فما برحنا من البلد حتى امتد الليل وقصر النهار»[28]، فاليوم قصير جدا والليل على العكس من ذلك، فيستطيع المتلقي أن يتخيل هذه الصورة وكيف أن اليوم لا يستطيع أن يقوم فيه الإنسان بأي عمل، فالتخييل يستلهم عوالمه من الواقع، ويقصد إلى إعادة بنائه في

صورة يعتقد المرسل لأنها النموذج الذي يجب لأن يكون عليه ومن ثم فإن عوالم التخييل تتداخل فيها الكيانات التخيلية والكيانات الواقعية[29].

الغريب في هذه البلاد أن الإنسان المعروف باجتماعيته ومعاشرته لكل ما هو أليف و الابتعاد عن كل ما هو مفترس ومتوحش، تتخلخل هذه القاعدة في بلاد البلغار ليصبح الإنسان فيها يعاشر الأفاعي «ورأيت الحياة عندهم كثيرة حتى أن الغصن من الشجر لتلتف عليه عشرة منها والأكثر، ولا يقتلونها ولا تؤذيهم حتى لقد رأيت في بعض المواضع شجرة طويلة يكون طولها أكثر من مائة ذراع، وقد سقطت وإذا بدنها عظيم جدا فوقفت أنظر إليه إذ تحرك فراعني ذلك وتأملته فإذا عليه حية قريبة منه في الغلظ والطول. فلما رأتني سقطت عنه، وغابت بين الشجر فجئت فزعا. فحدثت الملك زمن كان في مجلسه فلم يكترث لذلك. وقال " لا تجزع فليس تؤذيك"»[30]، فكيف يمكن للإنسان أن يعيش مع عدوه الأزلي الأفعى، وكيف يمكن تصور ذلك لولا المتخيل، فخطاب المتخيل «المتشكل مما أفرزته مشاهدات الراوي من لا مألوف وعجيب لدى الآخر/ الغير، وبعض البنيات الصغرى الحافزة، من بينها التنكر خوفا. والحيلة، والحوارات ثم التحذيرات والمشاعر المتنوعة، هذه المعطيات وغيرها، كانت صيغا لتدعيم الشعرية وسبيلا لإنبناء الرؤية وصيرورتها في سبيل تشكيل مرجع للمتخيل الأصلي بامتزاج مبدأين عامين في النص: مبدأ واقعي يحضر عبر الأزمنة المحايثة للأمكنة وبعض الأحداث، ومبدأ احتمالي يتمثل في المشاهدات والمرويات التي تحكي عن المحن وتشخيصها»[31]

الزنا يعاقب فاعلها بأقصى العقبات، إلا أنه ينزل « الرجال والنساء إلى النهر فيغتسلون جميعا عراة لا يستتر بعضهم من بعض، ولا يزنون بوجه ولا سبب. ومن زنا منهم كائنا من كان ضربة أربع سكك، وشدوا يديه ورجليه إليها وقطعوا بالفأس من رقيته إلى فخذه، وكذلك يفعلون بالمرأة أيضا. ثم يعلق كل قطعة منه و منها على الشجر... و يقتلون السارق كما يقتلون الزاني»[32] وهنا الجمع بن المتناقضات فكيف يغتسل الرجال مع النساء بدون إستتار، ويعاقبون على الزنا بهذه الطريقة ، فعوالم التخييل هي كفيلة بأن تخلق الإنسجام بين العناصر المتنافرة، أن تؤلف في صورة تركيبية عجيبة بين أشياء أو عناصر متباعدة على مستوى الزمان والمكان دون أن يشعر المتلقي بأن هناك تنافر بين هذه العناصر المتداخلة[33]

يواصل **بن فضلان** سفره، فالسفر في النص الرحلي يشتغل عنصرا يغذي الرحلة، فتنطلق الأحداث، ثم ينسحب تاركا الفرصة لتيمات أخرى خلال محطات الوقوف والوصول. وكلما ظهر خفوت تلك التيمات، أو إختنقت، أو أدت وظيفتها، يتم اللجوء مرة ثانية إلى مكون السفر لفتح أفاق أخرى على تيمات جديدة، وهكذا يكون السفر مولدا وجسرا كما هو حافز ووعاء[34]، قائلا «فركبت معهم حتى صرت إلى النهر فإذا أنا بالرجل، وإذا هو بذراعيه إثنا عشر ذراعا، وإذا له رأس كأكبر ما يكون من القدور، وأنف أكثر من شبر، وعينان عظيمتان، وأصابع تكون أكثر من شبر، فراعني أمره، وداخلني ما داخل القوم من الفزع، وأقبلنا نكلمه، بل ينظر إلينا. فحملته إلى مكاني، وكتبت إلى أهل "ويسو" وهم منا على ثلاثة أشهر أسألهم عنه، فكتبوا إلي يعرفونني أن هذا الرجل من "يأجوج و مأجوج" وهم منا على ثلاثة أشهر عراة يحول بيننا وبينهم البحر، لأنهم على شطة، وهم مثل البهائم ينكح بعضهم بعضا، يخرج الله – عز وجل- لهم كل يوم سمكة من البحر، فيجيئ الواحد منهم ومعه المدية فيحز منها قدر ما يكفيه عالية، فإن أخذ فوق ما يقنعه اشتكى بطنه، وكذلك عياله يشكون بطونهم. ربما مات وماتوا بأسرهم فإذا أخذوا منها حاجتهم انقلبا ووقعت في البحر. فهم في كل يوم على ذلك»[35]، فالصورة المتخيلة لهذا الرجل أنه رجل ضخم غريب شكله من قوم يأجوج ومأجوج يثير الرعب والفزع، فيتمظهر المتخيل في رحلة بن فضلان خاصة وأدب الرحلات عامة من خلال إمتزاج قطبي الواقع بالخيال التي تندرج تحت رايتهما عدة عناصر أخرى. ففي الرحلة العربية نجد امتزاج « مناخ ثقافي علم وضمن متخيل متنوع يرتكز على طبيعة إدراك مزدوج للمألوف واللامألوف، أو للطبيعي وفوق الطبيعي، وبين المرئي والغيبي، وهي عناصر مشتركة تكمل بعضها البعض لتجسير المجهول بالمعلوم»[36].

أما عن عاداتهم وتقاليدهم غريبة تفوق الخيال ولا تخطر ببال، فإذا مرض منهم الواحد «ضربوا له خيمة ناحية عنهم، وطرحوه فيها، وجعلوا معه شيئا من الخبز والماء، ولا يقربونه ولا يكلمونه، بل لا يتعداه دونه في كل أيام مرضه لا سيما إن كان ضعيفا أو مملوكا. فإن برئ وقام رجع إليهم وإن مات أحرقوه، فإن كان مملوكا تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطيور»[37]، فعندهم المريض كوباء يستغني عليه الجميع،

وترتسم هنا صورة وحشية فالمملوك ليس كالسيد، ولذلك المملوك يترك للحيوانات والطيور أما السيد فيحرق.

أما عن ملك الخزر فإنه إذا مات «يبنى له دار كبيرة فيها عشرون بيتا، ويحفر له في كل بيت منها قبرا، وتكسر الحجارة كالكحل، وتفرش فيه، وتطرح النورة فوق ذلك. وتحت الدار نهر، والنهر نهر كبير يجري، ويجعلون القبر فوق ذلك النهر، ويقولون "حتى لا يصل إليه شيطان ولا إنسان ولا دود ولا هوام" وإذا دفن ضربت أعناق الذين يدفنونه حتى لا يدري أين قبره من تلك البيوت. ويسمى قبره الجنة ويقولون" دخل الجنة، وتفرش البيوت كلها بالديباج المنسوج بالذهب»[38] فهم يعتقدون أن هذا القبر هو جنة ملكهم. فكيف يكون لملك عشرون قبرا ويقتل جميع من دفنوه، فالتخييل الأدبي يحاكي الحياة، المتلقي يتخيل هذه الوضعية ويرسم هول قتل الذين دفنوه بدون ذنب، فقط لكي لا يعرف قبر الميت.

أما مدة ملكهم فهي «أربعون سنة إذا جاوزها يوما واحدا قتلته الرعية وخاصته، وقالوا: "هذا قد نقص عقله واضطرب رأيه"»[39] فالرعية تقوم بقتل الحاكم مهما كانت حالته وقوته، وحب الرعية له.

بإضافة إلى القيمة الجغرافيا لرحلة **بن فضلان**، ورسمها لملامح الحياة في بلاد البلغار، والتي كانت مجهولة في العالم الإسلامي فالروائي مايكل كرايتون لم يتجاوز الحقيقة، عندما قال «أن مخطوط بن فضلان هي أقدم تسجيل معروف كتبه شاهد عيان عن حياة الشعب الإسكندنافي، وهو بذلك يعد وثيقة فريدة من نوعها تصف بدقة متناهية أحداثا وقعت تفوق الخيال منذ ما يزيد عن ألف عام»[40] فلقد نقل صورة حية « للظروف السياسية في العالم الإسلامي والعلاقات بين بلاد الإسلامي والبلاد المتاخمة لها في أسيا الوسطى أو أصقاع النائية التي كانت تمثل أطراف العالم المتمدن»[41].

خاتمة:

يمكن القول أن أحمد بن فضلان في رحلته إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة بالرغم من أنها رحلة فعلية، إستطاع أن ينقل لنا ما شاهده خلال مسار رحلته بطريقة فنية يتآزر فيها الواقع مع الخيال، فالأدب الرحلي –كما ذكرنا سابقا– ما هو إلا ضرب من ضروب النشاط الخيالي خرج من النمطية والتقريرية فاتحتا الباب أمام المتلقي للإبحار في عوالم جديدة، تخرجه من العزلة وتخفف عنه الوحدة مما يجعل

المتلقي لهذه الرحلة يغوص في أعماقها، ويحلق في فضائها، فالمتلقي موجود ليتخيل، ولا يمكن معرفة الآخر إن لم نتخيله، فالخيال في الرحلة هو عنصر فني أصيل فيها يساعد على رسم صورة الآخر.

هوامش البحث:

[1] أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن عبد الله الهزلى المسعودي يتصل نسبه بعد الله بن مسعود الصحابي الجليل(283هـ-346هـ)

[2] هو عبد الله ياقوت بن عبد الله شهاب الحموي البغدادي، ولقب بشهاب الدين(575هـ -626 هـ)

[3] ابن بطوطة (هو عبد الله محمد بن عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي 703 هـ/776 هـ الموافق لـ 1304م / 1375م)، بدأت رحلة سنة 725هـ منطلقا من طنجة وهي رحلة طويلة طاف خلالها معظم البلاد المسكونة المعروفة قبل سبعة قرون هي رحلة استكشافية ذات أبعاد دينية، وثقافية شاملة، تنقل فيها بن بطوطة بين مصر والشام، وقد زار القدس، أثناء تنقله سنة 762 هـ .

[1] هو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد البغدادي (877م-960م)

[2] أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، ، المجلد 03، دار صادر، بيروت، ط 1، 1997، ص 1609

[3] مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف محمد نعيم العرقسوسي، ط 8، مؤسسة الرسالة، لبنان 2005، ص 1005

[4] سعيد علوش، الصورة الغربية في الذاكرة الشرقية، الصورة الشرقية في الذاكرة الغربية، مجلة الثقافة الغربية – أدب الرحلة- بغداد، العراق ، عدد 03، 1989، ص 15

[1] ناصر عبد الرزاق الموافى، الرحلة في الأدب العربي– حتى نهاية القرن الرابع هجري- دار النشر للجامعات، ط1، 1995، ص 38

[2] أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، المجلد 04، ص 339

[10] ينظر: عاطف جودة نصر، الخيال مفهومه و وظائفه، مطابع الهيئة المصرية العامة، مصر، ب ط، 1984، ص 11

[11] ينظر: عاطف جودة نصر، الخيال مفهومه و وظائفه، المرجع نفسه، ص 9

[12] عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، أسرار البلاغة، قرأة و تعليق أبو فهد محمود محمد شاكر، الناشر مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ب ت، ب ط، ص 267

[13] محي الدين ابن عربي، الفتوحات المكية – السفر الأول-، تحقيق وتقديم عثمان يحي، تصدير ومراجعة إبراهيم مركور، المجلس الأعلى للثقافة بالتعاون مع معهد الدراسات العليا بالسربون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1985 ، ط 2، ص 186

[14] محي الدين ابن عربي، الفتوحات المكية، مرجع سابق، ص 206

[15] محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار النهضة للطباعة والنشر والتوزيع اللاذقية مصر، ب ط ، أكتوبر 1997، ص 388

[16] ينظر: المرجع نفسه، ص 390

[17] ينظر: غادة الإمام، غادة الإمام، جماليات الصورة لـ جاستون باشلار، دار التنوير للنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ط 1، 2010، ص 228

[18] المرجع نفسه، ص 229

[19] ينظر: المرجع نفسه، ص 230

[20] شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي التجنيس ـ آليات الكتابة ـ خطاب المتخيل، رؤية للنشر والتوزيع القاهرة، ط1، 2006، ص30

[21] أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، رسالة ابن فضلان في وصف رحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة(309 هـ -961م)، حققها وعلق عليها محمد سامي الدهان، دمشق، ب ط، 1959، ص 22

[22] المصدر نفسه، ص24

[23] المصدر نفسه، ص ص83، 84

[24] أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، رسالة ابن فضلان ، مصدر سابق، ص 86

[25] المرجع نفسه ص 123، 124

[26] شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي التجنيس ـ أليات الكتابة ـ خطاب المتخيل، مرجع سابق، ص 463

[27] الخامسة علاوي، الإرهاصات العجائبية في التراث السردي القديم وإشكالية التلقي ، مجلة الراوي، عدد 18، النادي العربي الثقافي، السعودية، 2008، ص 99.

[28] أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، رسالة ابن فضلان، مصدر سابق، ص ص126،127

[29] جميلة روباش – أدب الرحلة في المغرب العربي ، مخطوط رسالة دكتوراه العلوم في الأدب الجزائري القديم ، إشراف الدكتور أمحمد بن لخضر فورار، جامعة محمد خيضر بسكرة / 2014-2015، ص37.

[30] أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، رسالة ابن فضلان، مصدر سابق، ص ص127،128

[31] شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي التجنيس ـ أليات الكتابة ـ خطاب المتخيل، مرجع سابق، ص 366

[32] أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، رسالة ابن فضلان، مصدر سابق، ص134

[33] ينظر: جميلة روباش – أدب الرحلة في المغرب العربي، مرجع سابق، ص37.

[34] ينظر: شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي التجنيس ـ أليات الكتابة ـ خطاب المتخيل، مرجع سابق، ص 247

[35] أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، رسالة ابن فضلان، مصدر سابق، ص138

[36] شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي التجنيس ـ أليات الكتابة ـ خطاب المتخيل، المرجع السابق، ص 46

[37] أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، رسالة ابن فضلان، مصدر سابق، ص155

[38] المصدر نفسه، ص ص171،170

[39] المصدر نفسه، ص 173

[40] فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط 2، يوليو 2002، ص 177

[41] شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي التجنيس ـ أليات الكتابة ـ خطاب المتخيل، مرجع سابق، ص 123 نقلا عن كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، بيروت لبنان ، دار الغريب الإسلامي ط 2، 1987نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم ص 202.

قائمة المصادر و المراجع:

المصادر:

1- بن فضلان أحمد بن العباس بن راشد بن حماد، 1959، رسالة ابن فضلان في وصف رحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة(309 هـ -961م)، حققها وعلق عليها محمد سامي الدهان، دمشق، ب ط.

المراجع:

2- الإمام غادة ، غادة الإمام، 2010 جماليات الصورة لـ جاستون باشلار، دار التنوير للنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ط 1.

3- جودة نصر عاطف، 1984الخيال مفهومه ووظائفه، مطابع الهيئة المصرية العامة، مصر، ب ط.

4- حليفي شعيب ، 2006 الرحلة في الأدب العربي التجنيس . آليات الكتابة . خطاب المتخيل، رؤية للنشر والتوزيع القاهرة، ط1.

5- ابن عربي محي الدين 1985، الفتوحات المكية – السفر الأول-، تحقيق وتقديم عثمان يحي، تصدير ومراجعة إبراهيم مركور، المجلس الأعلى للثقافة بالتعاون مع معهد الدراسات العليا بالسربون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ، ط 2.

6- علوش سعيد ، 1989 الصورة الغربية في الذاكرة الشرقية، الصورة الشرقية في الذاكرة الغربية، مجلة الثقافة الغربية – أدب الرحلة- بغداد، العراق ، عدد 03.

7- الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، 2005 القاموس المحيط، تحقيق مكتب التراث في 8- مؤسسة الرسالة، إشراف محمد نعيم العرقسوسي، ط 8، مؤسسة الرسالة، لبنان

9- قنديل فؤاد ، أدب الرحلة في التراث العربي، يوليو 2002 مكتبة الدار العربية للكتاب، ط 2.

10- محمد الجرجاني عبد القاهر بن عبد الرحمن، ب ت، أسرار البلاغة، قرأة و تعليق أبو فهد محمود محمد شاكر، الناشر مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ب ط .

11- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم 1997، لسان العرب، ، المجلد 03، دار صادر، بيروت، ط 1.

12- الموافى ناصر عبد الرزاق 1995، الرحلة في الأدب العربي– حتى نهاية القرن الرابع هجري- دار النشر للجامعات، ط1.

13- هلال محمد غنيمي، أكتوبر1997 النقد الأدبي الحديث، دار النهضة للطباعة والنشر والتوزيع اللاذقية مصر، ب ط.

المجلات:

14- علاوي الخامسة 2008.، الإرهاصات العجائبية في التراث السردي القديم وإشكالية التلقي، مجلة الراوي، عدد 18، النادي العربي الثقافي، السعودية.

الرسائل:

15- روباش جميلة 2014-2015، أدب الرحلة في المغرب العربي ، مخطوط رسالة دكتوراه العلوم في الأدب الجزائري القديم ، إشراف الدكتور أمحمد بن لخضر فورار، جامعة محمد خيضر بسكرة.